زيارة الشيخين: العلامة محمد المكي بن عزوز والشيخ الخضر بن الحسين لبلدة سوف وأثرهما في نشر العلم والثقافة فيها عام 1905م

بقلم:

أ. د / عاشوري قمعون

قسم العلوم الإنسانية ـ كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية ـ جامعة الوادي.

ملخص

لا شك في أن الصلات الفكرية والثقافية بين تونس والجنوب الشرقي الجزائري تعد من النماذج الطريفة والفريدة، ومثالاً للصلات الحميمة التي تنشأ بين قطرين متجاورين. فهي تُعتبر مثالاً نادراً لعلاقات الجوار الإيجابي والخصيب بين الأقطار العربية التي تجمع بينها حدود مشتركة، وهي صلات ذات مظاهر متعددة ومتنوعة. كما أنها مشتملة على ميادين شتى: تعليمية، وثقافية، وصحفية، وسياسية. والمصدر الرئيس لربط جسور وشائج الدم وصلات القربى والتواصل بين البلدين، يعود إلى ذلك التحريض الذي أطلقه العلاّمة عبد الحميد بن باديس للطلبة، مشدداً على ضرورة الالتحاق بجامع الزيتونة للنهل من علومه المتنوعة.

– الكلمات المفتاحية: زيارة – الشيخين– بلدة سوف –الثقافة – الزيتونة.

Résumé:

Il ne fait aucun doute que les liens intellectuels et culturels entre la Tunisie et le sud-est de l'Algérie, est l'un des modèles éxotiques et uniques, et un exemple des liens intimes entre deux pays proches. Ils sont considérés comme un rare exemple de relations de voisinage positif et fertile entre les pays arabes qui ont des frontières communes. Ce sont des liens avec des aspects nombreux et variés. Ils contiennent également

des divers domaines: éducatifs, culturels, journalistiques, et politiques. Et la principale source de liaison des relations du sang, de parenté, et de la communication entre les deux pays, remonte à l'incitation lancé par l'érudit Abdelhamid Ben Badis envers les étudiants, en insistant sur la nécessité de rejoindre la mosquée de Zitouna pour suivre leurs études des sciences diversifiées.

مقدمة

من أبرز مظاهر التواصل الذي ربط بلاد الجريد التونسية بالزيبان وأحواز سوف، هي تلك الوفود التي قدمت من كل حدب وصوب، سواء للعمل في المناطق المنجمية بقفصة والمتلوي وأم العرائس؛ أو للتزود من مختلف العلوم الفقهية واللغوية والأدبية. هذا بالإضافة إلى هجرات السكان الجماعية أو الفردية، هروبا من بطش الاستعمار الفرنسي، الذي نتج عنه انتشار الفقر والحرمان والمرض وتفشي الجهل. مما يجعلنا نستقرئ الأحداث للتطلع إلى محاولة التعرف على النتائج الكامنة وراء السياسة الاستعمارية الغاشمة، والمظاهر الإيجابية لهذا التقارب الاجتماعي بين القطرين الشقيقين، من خلال ما ستتكشف عنه هذه الدراسة المتواضعة.

1- نفطة همزة الوصل بين بلدة سوف والجنوب التونسي :

لعبت نفطة في أطوارها المختلفة، دورا هاما كمنفذ رئيسي للجزائريين، الذين كانوا يشقون عصا الطاعة في وجه سلطات الاحتلال الاستعماري الفرنسي، ويتخذون من هذه القرية معبرا للهروب، وموطنا للكر والفر.

وفي زوايا وكتاتيب نفطة، وجد مئات الجزائريين مستقرا ومقاما لتلقي العلم، والتتلمذ على كبار علماء هذه القرية، الذين قاموا بدور بارز في تلقين الناشئة الجزائرية مبادئ العربية والدين الإسلامي. وتبعا لذلك اختلطت العائلات والأصول، وامتزجت الدماء وقويت المصاهرات. واشتهرت نفطة كمركز من

مراكز العلم بالنسبة للجزائريين المقيمين على امتداد التخوم الجزائرية، وتداخلت لهجتها باللهجات المتداولة في الجنوب الجزائري، وعاداتها بعادات الجزائريين. وعلى عرصات هذه الكتاتيب، وفي مقام تلك الزوايا، تلقى الشيخان: محمد المكي بن عزوز ومحمد الخضر حسين المبادئ الأولى من التعليم، جنبا إلى جنب مع تلاميذ من مختلف أنحاء الجزائر، وتعرفا عن كثب على وجوه الكثيرين منهم. ولمسا قضية الجزائر والحرمان الذي يعانيه أترابهما ممن اضطروا للهجرة إلى هذه الكتاتيب، مثل العلامة الموسوعي الشيخ إبراهيم بن عامر، وجدي من الأم، الحاج محمد بن إبراهيم الخليل (1870-1948م)، اللذين درسا في نفطة، بعد أن منعت فرنسا انتشار التعليم العربي في بلدهما الأم[1].

2- دور زاوية الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز في نشر العلم:

ولد الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز(1220-1282هـ/1803-1865م) بزاوية والده بالبرج، القريبة من طولقة بالجنوب الجزائري، وذلك سنة 1220هـ/ 1803م. ثم أخذ العلم عن شيوخ بلده، كما أخذ عن محمد الأمير[2]، أحد شيوخ الأزهر الشريف، وإبراهيم الباجوري المصري[3]، ومحمد بن علي السنوسي[4]. وأخذ تعاليم الطريقة الرحمانية عن الشيخ علي بن عمر الطولقي[5]. ثم تولى مشيخة زاوية والده بعد وفاته سنة 1233هـ/1818م، وذلك تحت إشراف ورعاية شيخه، إلى أن آنس منه القدرة على تسيير شؤونها[6]. وترك والده ثمانية أولاد أدركوا الاحتلال الفرنسي، وجاهد أكثرهم مع الأمير عبد القادر، وكان الحسن أكبرهم خليفة للأمير في جبال الجزائر الشرقية. ولما فشلت حركة الأمير، بقي هو وإخوته الأربعة شاكي السلاح واعتصموا بجبال الأوراس، مختفين في أدغاله عن فرنسا التي تسعى جاهدة للقبض عليهم. وقد نجحت في إلقاء القبض على الحسن، فأودعته في سجن مدينة عنابة، حتى مات فيه، وقيل إنه قتل مسموما. وهرب

إخوته الأربعة الآخرون: مصطفى والتارزي وعباس ومحمد إلى مدينة نفطة[7]. وقد تزوج علي بن عمر ابنة تلميذه مصطفى، وتدعى ذخيرة[8].

هاجر الشيخ إلى نفطة، رفقة صهره الشيخ الحسين بن علي بن عمر[9]، وأسس بها زاوية رحمانية عام 1258هـ/1844م لنشر مبادئ الطريقة بالقطر التونسي، وما لبثت أن انفصلت عن الزاوية الأم بالزيبان. وكان الشيخ صاحب شخصية جذابة، بما له من فصاحة وبيان، وتمكن في العلم، وديانة، وذوق صوفي، وصدق في ممارسة طقوسه، وله عدة مؤلفات في التصوف. وترجع شهرة زاويته إلى كونها أصبحت مدرسة للتعليم، بالإضافة إلى الدور الديني والاجتماعي. وكان رجالها يكملون دراستهم بجامع الزيتونة، ويتولون الوظائف الدينية كالقضاء والتعليم.

وذهب إلى هذه الزاوية أيضا عدد من طلبة الجزائر للدراسة أيضا. وأضحت ملجأ للهاربين من ظلم الاستعمار الفرنسي، وقاعدة خلفية لمقاومة الاحتلال، سيما قبل احتلال تونس سنة 1881م. وقد هرع إليها بعض الثوار أمثال: ناصر بن شهرة، وشريف ورقلة، محمد بن عبد الله. ونزل فيها محي الدين بن الأمير عبد القادر عام 1870-1871م حين دعا إلى الجهاد. فأهل بسكرة وتقرت وتبسة والوادي كانوا يقصدون زاوية نفطة للتعليم والسلوك معا[10].

أصبحت زاويته ذات شهرة واسعة في العلم والتصوف، حيث أنشأ فيها مدرسة هامة لتعليم القرآن الكريم وحفظه، وتدريس كافة فنون العلم. وجهز بيوتا لسكنى المتفرغين لطلب العلم، وأحضر لها كبار العلماء من مختلف الجهات.كما أسس عدة زوايا أخرى في تونس، كان لها أثر بعيد في تعليم القرآن الكريم وحفظ العقيدة الإسلامية، منها: زاوية توزر، والقصرين، وجرجيس، وجندوبة، وغدامس، والنوبة....

توفي الشيخ مصطفى في آخر ذي الحجة عام 1282هـ / 14 ماي 1866م، ودفن بنفطة[11].

3- إجازات الشيخ محمد المكي بن مصطفى لبعض العلماء الجزائريين:

كان محمد المكي بن مصطفى بن محمد بن عزوز يتصف بذكاء الصحراء ومضائها وصفائها، لهذا صار محدثا، ومسندا، ومؤرخا، ومقرئا، ومجودا، وفلكياً، وفقيها، وأصوليا، وفرضيا، وصوفياً، وأديبا، وناظما. هاجر أبوه من الجزائر لاجئا إلى تونس، هربا من وحشية الاحتلال الفرنسي، حيث ولد في مدينة نفطة يوم الأحد 15 رمضان 1270هـ/11 جوان 1854م، وتعلم بزاوية والده. وولي الإفتاء بنفطة سنة 1297هـ، ثم نصب قاضيا عليها[12].

نشأته وطلبه للعلم:

نشأ ابن عزوز في بيئة صالحة علمية، وتولى والده العالم الصالح التقي تربيته وتوجيهه، وتعلم في زاوية والده الشهيرة التي تعرف حتى اليوم باسم (زاوية سيدي مصطفى)، وحفظ القرآن في تلك الزاوية وهو في سن الحادية عشرة من عمره، واعتنى بحفظ المتون، واجتهد في مزاولة العلوم.

شيوخه وقراءاته في نفطة:

كانت توزر ونفطة في عهده آهلتين بالعلم، زاخرتين بالأدب، ناشطتين في حركة التأليف والتدريس حتى اشتهرتا باسم الكوفة والبصرة. قرأ على الشيخ قاسم الخيراني "شرح الشيخ خالد الأزهري على الآجرومية" و"شرح ميارة على ابن عاشر" في الفقه، وقرأ "الرحبية" و"الدرة البيضاء" في علم الفرائض، و"مبادئ علم الفلك" على ابن عمه الشيخ محمد بن عبد الرحمن التارزي، وقرأ "ألفية ابن مالك" بشروحها، و "مختصر خليل" بشروحه على الشيخ النوري بن أبي القاسم الزبيدي

النفطي، وقرأ "الترمذي" على عمه الشيخ محمد المدني بن عزوز.

شيوخه في جامع الزيتونة:

لما تزود بالقدر الكافي من العلوم على عدة أساتذة ومشايخ خاصة وغير خاصة، اشرأبت نفسه إلى الاستزادة، فالتحق بالمعهد الزيتوني وهو في الثانية والعشرين من عمره سنة 1292هـ، فلقي علماء أعلاما أجلاء، لازم أكثرهم، منهم: العلامة النحرير عمر بن الشيخ (ت1329هـ) المفتي المالكي إذ ذاك بحاضرة تونس، وقرأ عليه المحلى على جمع الجوامع في الأصول، والموطأ ومختصر السعد وغيرها من فنون أخرى. لازم شيخ المشايخ بها، الأستاذ الأكبر محمد النجار، المفتي المالكي (ت1331هـ) أيضا بالعاصمة. ومن جملة ما قرأ عليه: مقامات الحريري بالشريشي الكبير. ولازم أيضا الشيخ الإمام الأستاذ سالم بوحاجب[13] المفتي المالكي، وقرأ عليه المغني والسيوطي والسيد في وضع اللغة بشرح سعد الدين التفتزاني. وأخذ القراءات السبع رواية ودراية على شيخه العالم محمد البشير التواتي (ت1311هـ).[14]

تربيته ومعلوماته:

لما ارتوى من حياضه الفياضة بالعلوم، تفنن في المعقول والمنقول والفروع والأصول بالأخذ من هؤلاء الأعلام المحققين. تصدر للإقراء حتى تخرج عنه كثير من العلماء، واصطفاه محمد الطيب باي، ولي العهد سابقا، وأمير الأمحال، أستاذ البلاط الملكي لإقراء أحفاده.[15]

ولمّا كان جامع الزيتونة منهل العلوم والمعارف، ومعقل العروبة وحامل أمجاد الإسلام، فقد غرس في نفوس طلاّبه هذه الروح الأبيّة، فاصطبغ خريجوه بصبغة الولاء لمجد العروبة والإسلام. ومن هنا كانوا هم المشاعلَ النيّرة التي أضاءت طريق الجهاد ضدّ المستعمر الفرنسي البغيض. لقد كانت الزيتونة ممثلّة في شخص

علمائها وأبنائها وخريجيها في الصفّ الأمامي على خطّ المواجهة مع العدوّ. إذ أجّج شعلةَ الجهاد ضدّ الفرنسيّين فور احتلالهم تونس عام 1881م، مشايخ من أهل العلم والفضل والدين، فقاد حركة المقاومة الشيخ محمد السنوسي حتى نفته السلطات الاستعماريّة إلى الخارج، فحمل راية الجهاد من بعده الشيخ محمد المكي بن عزوز، وكان من مشايخ الزيتونة الثوريّين. إذ كان يبعث في نفوس تلاميذه روح التضحية والجهاد. كما كان تحت المراقبة المستمرة من قبل الاستعمار. وشملت مراقبتها له: الجزائر وتونس ومصر وتركيا. وأولت اهتماما كبيرا لاتصالاته الدينية. كما تشير إلى ذلك التقارير الأمنية الفرنسية.[16] وقد أفتى بتحريم المواد الدسمة الواردة من فرنسا أثناء زيارته للجزائر، ودعا إلى مقاطعتها اقتصاديا. فراقبته السلطة في تنقلاته، وتعقبته للقبض عليه، فتسلل إلى تونس، وطارده الاستعمار في كل مكان، فارتحل إلى الأستانة عام 1313هـ، وعينه السلطان عبد الحميد مدرسا للحديث والفقه بدار الفنون حتى وفاته بها عام 1334 هـ/1915م.[17]

مؤلفاته: رسالة في أصول الحديث- السيف الرباني – مغانم السعادة في فضل الإفادة على العبادة – نظم الجغرافية التي لا تتحول بمغالبة الدول – تعديل الحركة في عمران المملكة – عمدة الإثبات في رجال الحديث – إرشاد الحيران في خلاف قالون لعثمان، في القراءة – الجوهر المرتب في العمل بالربع المجيب – الحق الصريح – الذخيرة المكية في الهيئة- إسعاف الأخوان في جواب السؤال الوارد من داغستان – هيئة الناسك – أصول الطرق وفروعها وسلاسلها – إقناع العاتب في آفات المكاتب – انتهاز الفرصة في مذاكرة متفنن قفصة – الأجوبة المكية عن الأسئلة الحجازية، نظم.[18]

وقد عثر الأستاذ المحامي علي الرضا الحسيني في أوراق عمه العلامة محمد المكي بن الحسين، وبخط يده ما يلي: كان الأستاذ الجليل المرحوم محمد المكي بن

عزوز زار بعض أصدقائه، فقدم إليه فنجانا من القهوة، واقترح على الأستاذ أن يقول فيها شعرا قبل أن يشربها، فقال:

قيل لي القهــوة جاءت فابد مدحا في بهاها

قلت: فكري غاب عني غشيته بشذاهـــا[19]

العلاقة العلمية التي ربطت الشيخ محمد المكي ببعض شيوخ الوادي :

زار ديار سوف الشيخ المكي بن عزوز وقد ملأ الدنيا، حيث خرج مطاردا ومهاجرا لمقاومته الاستعمار الفرنسي بفتاويه ضد المصنوعات الأوربية. إذ زار القرى، ووثق علاقاته مع العلماء، ودرس في الزوايا والكتاتيب بالوادي وكوينين وقمار. وأجازه الشيخ علي بن صابر في أواخر القرن 19م، وتراسل مع الشيخ أحمد بن دغمان، والشيخ البشير بوكوشة (1867-1933م)[20]. ثم رحل سنة 1313هـ/ 1895م إلى الآستانة بتركيا، فتولى بها تدريس الحديث في دار الفنون ومدرسة الواعظين[21]. ومنها أجاز الشيخ الطاهر العبيدي(1886-1968م) عن طريق المراسلة، وبالمثل أجاز الشيخ البشير بوكوشة الذي كانت تربطه به علاقة مودة. وكان يرسل له مؤلفاته، ومنها كتاب في تقرير التوحيد الخالص والدفاع عن طريقة السلف، وهذا بعد تراجع الشيخ المكي عن الطرقية التي كان من أنصارها المستميتين، واتجه نحو منهج السلفية. وقد وقع نظر الشيخ ابن باديس على مصنفين منها لدى الشيخ حمزة، فنشر فقرات مهمة اختارها، حيث يقول: وقد اطلعنا هذه الأيام عند أخينا الشيخ حمزة بوكوشة، على كتابين من الشيخ المكي إلى السيد البشير، أبي الشيخ حمزة، رحمه الله، فنقلنا منهما الكلمتين الآتيتين... وأثبتهما تحت عنوانين: الأول، التوحيد في التوجه إلى الله. تاريخ الكتاب: 12 ربيع الأول سنة 1312هـ، والآخر: الاحتجاج على المخطئين من جميع الناس. تاريخ الكتاب: 8 شعبان 1328هـ. ونقيض هاتين الجملتين هو الذي كان فاشيا في

الوسط الجزائري.[22]

واستجاز وأجاز علماء كثيرين من المشرق والمغرب، ومن الذين أجازهم في الجزائر: العالم التقي محمد بن الحاج محمد الهاملي، والفقيه الدراجي بن عبد الله الصولي العقبى، والإمام الطاهر دالي علي البسكري.

واستمر بقاء الشيخ محمد المكي في الأستانة، إلى أن توفي بها يوم الثلاثاء 02 صفر عام 1334هـ/09 ديسمبر 1915م، ودفن في مقبرة يحي أفندي المطلة على البوسفور بإسطنبول، بعد أن خلف ابنين توفيا في تونس.[23]

4- دور الشيخ محمد الخضر حسين في ربط العلاقات الفكرية بمنطقة سوف:

أسرته ومكانته العلمية:

يعد من أشهر المتخرجين من زاوية نفطة، وقد ولد فيها يوم 26 رجب 1293هـ/16أوت 1876م. وأصل أسرته من قرية طولقة بولاية بسكرة، وهي واحة من واحات الجنوب الجزائري. واسم الشيخ هو محمد الأخضر بن الحسين بن علي بن عمر، فلما جاء إلى الشرق حذف "بن" من اسمه على الطريقة المشرقية، وغلب عليه الخضر عوضًا عن الأخضر. ونشأ الشيخ في أسرة علم وأدب من جهتي الأب والأم. وكانت بلدة نفطة التي ولد فيها، موطن العلم والعلماء، حتى إنها كانت تلقب بالكوفة الصغرى. وبها جوامع ومساجد كثيرة، وهي واحة بها زرع وفيها فلاحون. ونشأ في أسرة كريمة تعتز بعراقة النسب وكرم الأصل. ومما يدل على عراقة أسرته في العلم، أن منها جده (مصطفى بن عزوز) وأبا جده لأمه (محمد بن عزوز)، وهما من أفاضل علماء الجزائر، وخاله (محمد المكي) من كبار علماء تونس، وكان موضع الإجلال في الخلافة العثمانية. وفي هذا الجو المعبق بأريج العلم، كانت أمه حليمة تدعو له شعراً بالذَّهاب إلى الأزهر وهو ابن سنة واحدة؛

قائلة:

"لخضر يا لخضر ** تكبر وتولي شيخ الأزهر "[24].

وكانت هذه الأم مباركة، إذ تلَّقى عنها ابنها كتاب الكفراوي في النَّحو، وكتاب السفطي في الفقه المالكي. وقد نشأ الخضر حسين، فحفظ القرآن الكريم، وشيئًا من الأدب والعلوم الشرعية. ثم انتقل مع أسرته إلى تونس العاصمة سنة 1305هـ/ 1887م، وهو في الثانية عشرة من عمره، والتحق بجامع الزيتونة، وأكبّ على التحصيل والتلقِّي. وكانت الدراسة فيه صورة مصغرة من التعليم في الجامع الأزهر يومئذ، تُقرأ فيه علوم الدين من تفسير وحديث وفقه وعقيدة وعلوم اللغة من نحو وصرف وبيان. وكان من أبرز شيوخه الذين اتصل بهم وتتلمذ لهم: عمر بن الشيخ، ومحمد النجار، وكانا يدرّسان تفسير القرآن الكريم، والشيخ سالم بوحاجب، وكان يدرس صحيح البخاري، وقد تأثر به محمد الخضر حسين وبطريقته في التدريس.

تخرج محمد الخضر حسين من الزيتونة، وكان غزير العلم، واسع الأفق، فصيح العبارة، محبًا للإصلاح. أنشأ مجلة "السعادة العظمى" سنة 1321هـ/1903م لتنشر محاسن الإسلام، وترشد الناس إلى مبادئه وشرائعه، وتوقظ الغافلين من أبناء أمته، وتفضح أساليب الاستعمار. وقد لفت الأنظار إليه بحماسه المتقد ونظراته الصائبة، فعُهد إليه بقضاء "بنزرت"، والخطابة بجامعها الكبير سنة 1323هـ/1905م، لكنه لم يمكث في منصبه طويلاً، وعاد إلى التدريس بجامع الزيتونة وتولى تنظيم خزائن كتبه. ثم اختير للتدريس بالمدرسة الصادقية، وكانت المدرسة الثانوية الوحيدة في تونس. وقام بنشاط واسع في إلقاء المحاضرات التي تستنهض الهمم، وتنير العقول وتثير الوجدان. وأحدثت هذه المحاضرات صدى واسعًا في وسط المجتمع التونسي.[25]

زيارته لمدينة الوادي :

لما عزم الشيخ الخضر على زيارة مدينة الوادي عام 1904م، راسل المراقب المدني يطلب منه الرخصة، فبعث هذا الأخير إلى الإقامة العامة الفرنسية بتونس للنظر في الطلب المقدم، والاطلاع على موقف السلطات الفرنسية في الجزائر. وإليكم نص الرسالة:

الإقامة العامة– المراقبة المدنية

نيابة القنصلية الفرنسية– تونس

رقم 03D116

تونس في 10 أكتوبر 1904

المراقب المدني، نائب القنصل الفرنسي بتونس

إلى السيد المفوض لدى الإقامة العامة للجمهورية الفرنسية بتونس.

أتشرف بإعلامكم أن السيد الأخضر بن الحسين من زاوية طولقة(بسكرة)، الساكن بتونس، يطلب الترخيص له بالسفر إلى وادي سوف لبيع نخيله هناك. وسوف أكون ممتنا لو تطلبون من الحكومة العامة بالجزائر، إذا لم يكن هناك مانع، الاستجابة للطلب المقدم.

وقد أبرقت مصلحة الشؤون الأهلية الملحقة بالحكومة العامة بالجزائر إلى المقيم العام بتونس تحت رقم 1921 ردا على البرقية: أن السيد الأخضر بن الحسين غير المعروف بالوادي، ولعله السيد الأخضر بن الحسين الساكن بتونس، والذي يملك النخيل بسوف، ويقوم حاليا بزيارة طولقة. وفي هذه الحالة، لا نرى أي مانع من الموافقة على الزيارة(26).

وهكذا جاء الشيخ الأخضر عام 1905م إلى الوادي، واتصل ببعض أعيانها وعلمائها مثل: قائد عرش الأعشاش، محمد العيد بن موسى، والعالم الشهير الشيخ إبراهيم بن عامر. واجتمع عليه طلبتها، وألقى فيهم دروسا في التفسير، وختم لهم

منظومة "غرامي صحيح في مصطلح الحديث"[27]. وقد تركت هذه الزيارة أثرها الحميد في نفوس الناس سواء في الوادي أو قمار أو كوينين، ولاسيما لدى الشيخ إبراهيم بن عامر الذي طبع كتابين في نفس العام، أي سنة 1905م، الأول في التصوف، والثاني في العروض. كما جالس وحاور بعض العلماء في زاوية سيدي سالم وجامع سيدي المسعود بالوادي. وقد حضر في الوادي درسا في تفسير القرآن، ألقاه تلميذه الشيخ الطاهر العبيدي، فأعجب العلامة الخضر بدرسه أيما إعجاب، حتى صدح شقيقه الشيخ أحمد بالقصيدة التالية:

نزل الكتاب المحكـــم الآيـــات يبدي لنا الماضي وما قد ياتي
حضر الرضا الخضر الحسيني درس ذا بالوادي في التفسير مذ سنوات
فاهتز من عجب وقال قليلـــــة أمثال ذا في هذه الأنـــات[28]

كما زار مسجد والده الشيخ الحسين الواقع شمال حي الأعشاش، والمجاور لمنزل عائلة موساوي. وأجرى حوارا مع الشيخ محمد بن البرية (1884-1949م) عندما التقى به في بلدة قمار[29].

وقام الشيخ محمد الخضر بزيارة بلدة كوينين، ودرس في جامع الثلمود العتيق متن البيقونية[30] في مصطلح الحديث. ومن الذين سمعوا عليه: الطالب عمر الأحمدي، وأحمد بن إبراهيم مساك، والشيخ الصغير زبيدي، وأخوه البشير، والحاج الساسي بورفة وغيرهم.[31] وقد عرض عليه بعض أعيان الوادي، ومنهم القائد محمد العيد، بأن يبقى بينهم يدرس الأهالي مقابل مبلغ معين من المال يجمع له من الطلبة، غير أنه أبى، مفضلا وظيفة القضاء على التدريس لأنه أكثر نشبا (مالا) رغم كراهته.[32]

الخاتمة

وفي نافلة القول، يتضح لنا من خلال هذه الدراسة، أن العلاقات الثقافية والبعثات العلمية ما فتئت تتطور مع توالي الأزمان، وتعاقب الدهور والأيام، ولاسيما بين القطرين المتجاورين. وقد عرفت هذه الروابط ازدهارا وانتعاشا، وخاصة منذ أن تدفقت هجرات أهل سوف على تونس، سواء للبحث عن العمل في المناطق المنجمية، أو بالنسبة للمبادلات التجارية عن طريق القوافل، أو بسبب الهجرات الطلابية لمواصلة الدراسة في جامع الزيتونة وفروعه. وقد أثمرت هذه الاتصالات في ربط علاقات متينة وراسخة لا تزول بمرور الأزمان، وقد نتج عنها تمازج السكان واختلاط القبائل، وانصهارها في وحدة متراصة. كما أن هذه العلاقات الثقافية قد وفرت للوطن الجزائري المسؤول الكفء والإطار الناجح، الذي تحمل بكل أمانة وصدق، عبء مواصلة خوض معركة البناء والتعمير.

الحواشي والإحالات:

[1] – محمد صالح الجابري: التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس. دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000، ص221–222.

[2] – ولد الشيخ محمد الأمير في شهر ذي الحجة سنة 1154هـ/1742م في أسيوط بصعيد مصر. وبعد تسع سنوات، حفظ القرآن ثم تلقى العلم حوالي عشرين عاما على أيدي علماء الأزهر آنذاك، وظهرت مواهبه في تلقي العلوم بعد 11 عاما من التحاقه بالأزهر. إذ جمع وألف كتاب المجموع في الفقه المالكي، وكان عمره 21 عاما. وقد أحدث هذا الكتاب ضجة في الفقه المالكي في مصر وباقي العالم الإسلامي، وفاق به كل أقرانه، وحتى شيوخ الأزهر السابقين. وصار هذا الكتاب مرجعا للدارسين، وحتى أساتذته كانوا يرجعون إليه في بعض مسائلهم، ويرشحون ذلك الكتاب لمن يريد الاستفسار عن المذهب. توفي عام 1232هـ/1817م.

انظر أشرف فوزي: شيوخ الأزهر؛ حياة محمد الأمير السنباوي في تاريخ الجبرتي.

[3] – ولد الإمام إبراهيم بن محمد بن أحمد الشافعي الباجوري سنة 1198هـ/1784م. وينسب إلى بلدة الباجور، وهي إحدى مدن محافظة المنوفية. وفيها علماء كثيرون تأثر بهم الباجوري، منهم والده البرهان الباجوري. وهو على هذا، نرى أنه نشأ في بيئة علمية من شأنها إنجاب العلماء والعباقرة. وقد تربى الباجوري تحت رعاية والده، حيث حفظ القرآن الكريم وجوَّده عليه، وقَدِمَ إلى الأزهر لطلب العلم سنة 1212هـ. وترك القاهرة فترة الاحتلال الفرنسي، ثم عاد إليها. ثم جدَّ واجتهد في طلب العلم وداوم عليه. وتتلمذ على أعلام علماء الأزهر مثل: الشيخ محمد الأمير، الذي أجازه بجميع ما ورد في "ثبته"، وتتلمذ على الشيخ الشرقاوي والقويسني، وهو أكثر الشيوخ الذين داوم معهم في طلب العلم. وفي وقتٍ قصيرٍ، ظهرت عليه علامات النبوغ، فدرس ودرَّس للطلاب، وألَّف في علوم مختلفة. وكان يقضي وقته من أول النهار حتى العشاء مع الطلاب يدرِّس لهم، ويؤلف الكتب. وإذا فرغ من هذا، جلس يرتل القرآن بصوتٍ جميلٍ شجيٍّ يسعى لسماعه مئات الناس.

وتولى مشيخة الأزهر سنة 1263هـ/1847م، واستمر في التدريس مع القيام بشؤون المشيخة. وكان يمتاز بالهيبة والوقار، والحرص على كرامة العلماء. وكان السلطان عباس الأول يحضر دروسه أحيانًا كثيرةً بالأزهر، ويقبِّل يده.

وقد كرَّس فضيلة الشيخ الباجوري حياته من أجل الأزهر ورفعته حتى أقعده المرض،وحال بينه وبين ما يريد.وقد لبى الشيخ الباجوري نداء ربه سنة 1277هـ/ 1861 وصُلِّيَ عليه في الأزهر، وأجريت له المراسم المعتادة من قبل زملائه من العلماء وتلاميذه النجباء. وشُيِّعَ في جنازة مهيبة، تتفق وجهاده في سبيل رفعة الأزهر وطلابه وعلمائه. وهكذا رحل عالمنا الجليل إلى مثواه الأخير بعد أن ملأ الدنيا علمًا.

انظر سليمان رصد الحنفي الزياتي: كنز الجوهر في تاريخ الأزهر ص 143؛ أشرف فوزي: شيوخ الأزهر.

[4]– ولد محمد السنوسي يوم الاثنين 12 ربيع الأول 1202هـ/ 21 ديسمبر1787م بضاحية وادى مينا، الواقعة على ضفة وادي الشِلْف. وطلب العلم على يد علماء مستغانم، ثم رحل إلى فاس سنة1828 م، والتحق بجامع القرويين، وحصل على المشيخة الكبرى، وعين مدرسا بالجامع الكبير بمدينة فاس، ودرس فيها الطرائق القادرية والناصرية والحبيبية والشاذلية والجازولية. ولكن دعوته إلى جمع شمل المسلمين أقلقت حكومة السلطان، فرحل أواخر عام 1829م إلى عين ماضي، ثم قصد الأغواط في جنوب الجزائر. وبعد احتلال فرنسا للجزائر، قرر السفر إلى قابس وطرابلس وبنغازي. ثم بلغ مصر، فلم يمكث بها طويلا حتى توجه إلى مكة المكرمة، ثم عاد إلى فاس. ولكن نشاطه أقلق

الحكومة، فتوجه إلى طرابلس، وشرع في مساعدة ثورات الجزائر ضد الفرنسيين. وأنشأ عددا من الزوايا، وتبعه الناس حتى أضحت الحكومة تخشى بأسه، وساءت العلاقات بين الجانبين. فانتقل إلى واحة جغبوب، جنوب الصحراء الليبية، وجعل مقره هناك. ولما توفي عام 1276هـ/ 1859م، كانت الطريقة التي أنشأها، قد انتشرت انتشارا كبيرا في معظم الرقعة الجغرافية لإفريقيا الشمالية. انظر محمد إبراهيم الجيوشي: "أشهر الدعاة في العصر الحديث: السيد محمد بن علي السنوسي وخلفاؤه والدعوة السنوسية". مجلة الداعي، العددان 6-7 (دار العلوم ديوبند: أبريل-يونيو 2013م).

[5] - ولد علي بن عمر بن أحمد بن الموفق، ببلدة طولقة خلال عام 1166هـ/ 1754م. نشأ بمسقط رأسه، وتلقى العلوم هناك. وأخذ أوراد الطريقة الرحمانية على يد الشيخ محمد بن عزوز البرجي. ولما بلغ 28 عاما، أمره شيخه بإقامة زاوية عام 1194هـ/ 1780م في حارة الهبرة بطولقة، ذاع صيتها وطبقت شهرتها الآفاق. وفتح الشيخ زاويته للتعليم والإرشاد والتوجيه، وتلقين الأوراد الرحمانية، وإيواء الفقراء والمساكين، وتقديم الطعام للمحتاجين وعابري السبيل. واهتم بجمع الكتب ونشر العلم والمعرفة في تلك الديار والمناطق المجاورة. وأدى فريضة الحج رفقة شيخه عام 1232هـ/1816م.

وقتل خلال قيامه بالصلح بين قبيلتين متحاربتين، برصاصة طائشة يوم الخميس 3 ربيع الأول عام 1258هـ/ 14 أفريل 1842م، ودفن بزاويته الحالية.

أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ج4. دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1998، ص148.

[6] - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق ج4، ص148-149.

[7] - العلامة محمد المكي بن عزوز: مجموعة الرسائل. تحقيق وتعليق علي الرضا الحسيني، الدار الحسينية للكتاب، 1423 هـ/ 2002م، ص130؛ و ص 149؛ معجم مشاهير المغاربة. تنسيق الدكتور أبو عمران الشيخ، وتقرير الدكتور ناصر الدين سعيدوني، جامعة الجزائر، 1995.

[8] - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق ج4، ص148-149.

[9] - الشيخ الحسين بن علي بن عمر الطولقي(1246-1309هـ/1830-1891م). جاء إلى الوادي عام 1870م لتأسيس زاوية رحمانية بحي الأعشاش، استجابة لطلب من عائلة موساوي، غير أن اعتراض شيخ عرش الأعشاش محمد بن موسى بن محمد(1830-1901)، ابن أخت سالم العائب على هذا الإنشاء، حال دون ذلك، متذرعا بوجود زاوية سيدي سالم القريبة وفي نفس الحي، وأعطى موافقته على إنشاء مسجد، ساهم الشيخ الحسين من ماله الخاص في بنائه. ثم غادر الشيخ الحسين مدينة الوادي قافلا إلى نفطة. ولولا هذا الاعتراض، لحظيت بلاد سوف بميلاد

الشيخ الخضر على أرضها. مع العلم أني ختمت القرآن الكريم عام 1967 على يد المقرئ الشهير، الشيخ عبد الحميد بن عبد الرحمان قروي(1920-1989م) في هذا الجامع. وعرف بجامع سيدي الحسين، واشتهر في الوقت الحالي بجامع سيدي حميدة.

انظر: التقرير التاريخي الذي كتبه الشيخ الهاشمي حسني عام 1967 بطلب من الإمام عبد الحميد قروي، لفائدة وزارة الأوقاف الجزائرية.

[10] – أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق ج4، ص 153.

[11] – أبو القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف ج1. مطبعة الرسالة، بيروت، لبنان، ص482-484.

[12] – انظر عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج3. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1993، ص734.

[13]– سالم بو حاجب(1243-1342هـ/1827-1923م): بن عمر بو حاجب النبيلي(أبو النجاة). فقيه مشارك في أنواع من العلوم. تولى التدريس بجامع الزيتونة ثم الفتيا. له من الآثار: شرح على ألفية ابن عاصم في الأصول، وتقريرات على البخاري، وديوان خطب، وتقريرات على الأشموني على الخلاصة، وله نظم.

وقد التقى الشيخ سالم بوحاجب بتونس مع قاضي الوادي، أحمد بن عبد الله دغمان، عندما كان الشيخ يدرس في جامع الزيتونة، وكان أحمد بن دغمان يحمل الحائك كأنه من بلاد الجريد، وسأل الشيخ، فلم يتحمل سؤاله، وقال له: أنتم الجريدية قباح لأنكم دوما تحرجون المسؤول. فسكت أحمد، وحرر له وريقة تتضمن البيت التالي:

تنازلت لما تطاول سالم وسالمت والغريب يسالم.

وعند انتهاء صلاة العشاء، رمى الشيخ أحمد الوريقة في طريق الشيخ سالم، وحينما رفعها الشيخ وقرأها، تيقن أن هذا الكلام ليس كلام سوقة، وطلب من النقيب إحضاره. ولما مثل أمامه، سأله من أين أنت؟ فأجابه الشيخ أحمد: من قمار، فقال له الشيخ: ضيافة المؤمن ثلاثة أيام، وأنا أضيفك أربعين يوما.

انظر عمر رضا كحالة: المرجع السابق، ج1، ص 751؛ ومقابلة مع الشيخ أحمد خراز يوم الأربعاء 27/08/2008م، على الساعة 19.

[14] – العلامة محمد المكي بن عزوز: مجموعة الرسائل. جمع وتحقيق علي الرضا الحسيني، الدار الحسينية للكتاب، 1423 هـ/ 2002 م، ص 112.

[15] – العلامة محمد المكي بن عزوز: رسائل ابن عزوز. جمع وتحقيق علي الرضا التونسي، الطبعة الأولى، 1404 هـ/ 1984م، ص14

[16] – العلامة محمد المكي بن عزوز: مجموعة الرسائل. جمع وتحقيق علي الرضا الحسيني، الدار الحسينية للكتاب، 1423 هـ/ 2002 م، ص 115.

[17] – العلامة محمد المكي بن عزوز: مجموعة الرسائل. جمع وتحقيق علي الرضا الحسيني، الدار الحسينية للكتاب، 1423 هـ/ 2002 م، ص 131.

[18] – العلامة محمد المكي بن عزوز: رسائل ابن عزوز. جمع وتحقيق علي الرضا التونسي،الطبعة الأولى، 1404 هـ/ 1984 م، ص 25-28.

[19]– نفسه، ص 370.

[20] – علي غنابزية: مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية 1300-1374هـ/1882-1954م. رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر لجامعة الجزائر عام 2009م، ص72-73.

[21] – مراسلة حمزة بوكوشة حول دور وادي سوف العلمي، وعلاقة علماء تونس بحواضرها يوم 12 جانفي عام 1994م. انظر علي غنابزية: المرجع السابق ص386.

[22]– الشهاب: م13، ج1، ص 26-27، 1 محرم 1356هـ/ 14 مارس 1937م؛ سمير سمراد: "الشاعر الناقد الشيخ حمزة بوكوشة". جريدة الإصلاح، ع 9، (الجزائر: ماي وجوان، 2008) ص 66؛ عمر رضا كحالة: المرجع السابق، ج1، ص734.

[23]– علي الرضا الحسيني: رسائل محمد المكي بن عزوز ص8؛ عمر رضا كحالة: المرجع السابق، ج1، ص734؛ أحمد البختري: المرجع السابق ص 215-225.

[24]– ل. فكرون: "الشيخ محمد الخضر حسين الطولقي". جريدة الخبر، السبت 04 أوت 2012م

[25]– د./ محمد موسى الشريف: شيخ الأزهر محمد الخضر حسين.

[26]– انظر: A.N.T.S: D.C:178. D:4/10.

[27]– مقابلة الشيخ حمزة بوكوشة للشيخ الخضر لما زاره في القاهرة. والمنظومة للإمام أحمد بن شهاب الدين أبي العباس فرح الإشبيلي الشافعي(ت.699هـ)، حيث قال:

غرامي صحيحٌ والرجا فيك مُعضلٌ*** وحزني ودمعي مُرسلٌ ومسلسلُ
وصبري عنكم يشهد العقلُ أنـهُ *** ضعيفٌ ومتروكٌ وذلي أجمـلُ
ولا حسنٌ إلا سماعُ حديثكـــم *** مشافهةً يُملى علي فأنقِـــلُ
وأمري موقوفٌ عليـك وليس لي *** على أحدٍ إلا عليك المُعـولُ
ولو كان مرفوعاً إليـك لكنت لي *** على رغم عذالي ترقُّ وتعـدلُ
وعذلُ عذولي منكرٌ لا أُسيغـه *** وزورٌ وتدليسٌ يُردُّ ويُهمـلُ
أقضي زماني فيك متصـلَ الأسى *** ومنقطعاً عما به أتوصـلُ

وها أنا في أكفان هجركَ مـدرجٌ *** تكلفني ما لا أُطيق فأحمـلُ
وأجريت دمعي فوق خدي مدبجاً *** ومـا هي إلا مهجتي تتحلـلُ
فمتفقٌ جفني وسُهدي وعبـرتي *** ومفترقٌ صبري وقلبي المبلبـلُ
ومؤتلف وجدي وشجوي ولوعتي *** ومختلفٌ حظي وما منك آمَـلُ
خذِ الوجدَ عني مسنداً ومعنعنـاً *** فغيري بموضوع الهوى يتحيـلُ
وذي نبذٌ من مبهم الحب فاعتبر *** وغامضُه إن رمتَ شرحاً محولُ
عزيزٌبكم صـبٌ ذليـلٌ لعزكـم *** ومشهورُ أوصافِ المحب التذللُ
غريبٌ يقاسي البعد عنكَ وما لـه *** وحقك عن دار الهوى متحـولُ
فرفقا بمقطوعِ الوسائل ما لـــه *** إليك سبيلٌ لا ولا عنك معـدلُ
ولا زلتَ في عز منيع ورفعـــةٍ *** وما زلتَ تعلو بالتجني وأنــزلُ
أوري بسُعدى والربـــابِ وزينبٍ *** وأنت الذي تُعنى وأنت المؤملُ
فخذ أولاً مـن آخـرٍ ثم أولاً *** من النصف أيضا فهو فيه مُكملُ
أبر إذا أقسمتُ أنـــي بحبـــهِ *** أهيمُ وقلبـــــــي بالصبابـــة مُشعلُ

[28]- في اليوم العاشر من محرم عام 1353هـ/17-4-1934م، أتم الشيخ الطاهر العبيدي تفسيره للقرآن الكريم، وعاشت تقرت مهرجانا عظيما، وهنا نظم الشيخ أحمد قصيدة لهذه المناسبة جاء فيها: (نزل الكتاب المحكم الآيات ** يبدي لنا الماضي وما قد ياتي).

ارجع إلى المنظومة التي دونها الخطاط الشهير الشيخ مصطفى بن الصادق سالمي. وأحتفظ بنسخة منها في مكتبتي.

[29]- علي غنابزية: المرجع السابق ص74-75.

[30]- البيقونية، نسبة إلى البيقوني الذي كان حيا قبل عام 1080ه/1669م. وهو طه (أو عمر) بن محمد بن فتوح البيقوني، الدمشقي الشافعي. محدث، أصولي. نظم البيقونية في مصطلح الحديث. وضع الناس عليها شروحا عديدة.

انظر: معجم المؤلفين ج5 ص44.

[31] - مقابلة مع الشيخ البشير الأحمدي من كوينين عام 2010.

[32]- مقابلة مع الشيخ أحمد خراز الذي نقل الرواية عن المرحوم إبراهيم بن محمد الساسي قشوط، وذلك يوم الأحد 05 رمضان 1434هـ/ 14 جويلية 2013م.